Translated excerpt

Andreas Bernard
Komplizen des Erkennungsdienstes
Das Selbst in der digitalen Kultur

S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main 2017
ISBN 978-3-10-397301-3

pp. 7-27

أندرياس برنارد
المتواطئون مع خدمة كشف الهوية
الذات في الثقافة الرقمية

Samar Moneer

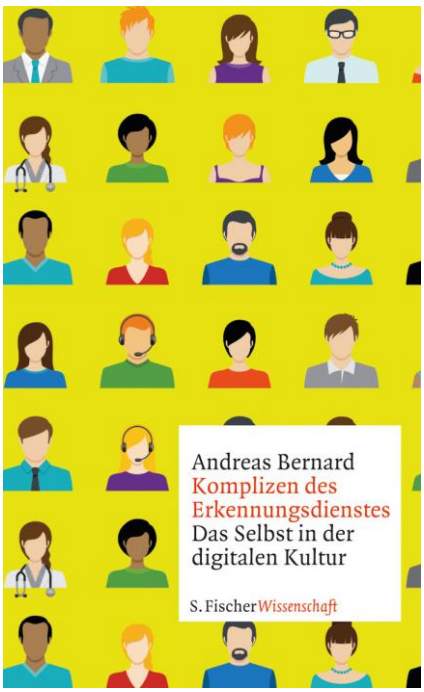

© 2018 Litrix.de

1. الملف الشخصي: مسيرة ارتقاء ذلك الشكل

عندما اهتزت الولايات المتحدة الأمريكية في غضون أشهرٍ قليلة من عام 2012 بفعل حادثي إطلاق نار بشكلٍ عشوائي في أحد دور السينما في مدينة "دنفر" وفي مدرسة ابتدائية في ولاية " كونيتيكت"، تجدد نقاش سياسي قديم. كان هذا النقاش متعلقًا بالسؤال، هل من الممكن في المستقبل وضع حدود لمجموعة الجناة المحتملين بشكلٍ أفضل والحيلولة في وقتٍ مبكر دون وقوع جريمة من هذا النوع. فبالإضافة إلى المؤشرات المعروفة والمثيرة للارتياب – أي الإنطواء المميز للجناة والذين يكونون بشكلٍ شبه دائم من الذكور وعزلتهم الاجتماعية والعلاجات النفسية، التي تلقونها في الماضي – هناك معيار آخر، ألا وهو إحجام القتلة بالإجماع عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. حيث كشف المراسلون عن أن "جيمس إيجان هولمز"[1] و"آدم لانزا"[2] لم يكن لديهما "ملفًا شخصيًا" على موقع "فيس بوك" "Facebook" أو موقع "تويتر""Twitter" أو موقع "لينكد إن" "LinkedIn". فقد رفضا – شأنهما في ذلك أيضًا شأن النرويجي "أندرس بريفيك"[3]، الذي سبقهما في إرتكاب جرائمهما بعام – العروض المتاحة والموجودة بكثرة في شبكة الانترنت لعرض الذات والتواصل مع الآخرين. وقد اكتسب هذا العزوف عن شبكة الانترنت صفة الإشارة إلى وجود خطر. يتذكر مديرو شئون العاملين في شركات كبرى قائلين أن إلقاء نظرة على الملفات الشخصية على شبكة الإنترنت للمتقدمين للعمل أصبحت تندرج في الوقت الحاضر ضمن مقاييس اختيار المرشحين اللائقين للعمل وأن التغيب التام عن التواجد على شبكات التواصل الاجتماعي يثير الشعور بالاندهاش. وقد أكدت دراسة أجراها الطبيب النفسي الكندي "ريتشارد بيلونجيه" ونشرها عام 2011 هذا الرأي من الناحية الطبية حيث أن هذه الدراسة أثبتت وجود صلة وثيقة بين النشاط على شبكة الانترنت والصحة النفسية لدى الشباب، فوفقًا للنتيجة النهائية التي توصل لها "بيلونجيه" فإن «الناشئة، الذين لا يتواجدون على الإطلاق على شبكة الانترنت وأولئك، الذين يفعلون ذلك لساعاتٍ عديدة في اليوم» يبعثون «الأطباء وعلماء النفس على الشعور بالانزعاج». وقد أظهر هذا النقاش بوضوح أن الثقافة الرقمية في الوقت الحاضر تشهد ما يضاهي لحظة من التشوش والبلبلة، وذلك عندما لا يخلق الناس في عمر معين صورة علنية لذواتهم عبر شبكة

[1] جيمس إيجان هولمز: مشتبه بإطلاقه للنار في أحد دور السينما في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2012 (المترجمة)
[2] آدم لانزا: مرتكب حادث إطلاق النار في مدرسة ابتدائية بالولايات المتحدة الأمريكية عام 2012 (المترجمة)
[3] أندرس بريفيك: مرتكب هجمات إرهابية في النرويج عام 2011. (المترجمة)

© 2018 Litrix.de

الانترنت، أي على هيئة ملفات شخصية ومنشورات تعبر عن حالتهم وتعليقات يكتبونها. وعلى ما يبدو فإن هذا العزوف يعد في العالم الغربي اليوم إشارة أولى على وجود أمرٍ يلفت الأنظار بشكلٍ غريب من الناحية النفسية، ربما يكن مرضًا وربما غريزة مرضية كامنة، والتي قد تتفجَّر ذات يوم لتصبح نوبًة مرضية مهلكة. ومن الناحية العكسية فإن الاستخدام المنتظم لوسائل التواصل الاجتماعي تعد إثباتًا للتمتع بالصحة والحالة الطبيعية.

تتعلَّق التأملات التالية والمختصة بوضع الذات في الثقافة الرقمية بالإجراءات والخدمات والأجهزة، التي أصبحت في الوقت الحاضر بديهية و تبدو في استخدامها المتوفر في كل مكان بصورةٍ متزايدة كأنها أمرٍ طبيعي. ومع ذلك فإنها تمثل في تاريخ أشكال تمثيل الفرد تطورًا حديثًا بشكلٍ مدهش. فمن التحق قبل ربع قرن بالمدرسة أو الجامعة، سيتذكر مدي محدودية الخيارات المتاحة آنذاك ليعرض الفرد شخصيته وميوله وقناعاته على الملأ. ومن ضمنها ملصق على ياقة السترة وبضعة أسطر أسفل صورة في صحيفة المدرسة الثانوية وإعلان طلب تعارف باهظ التكاليف ويكون متاحًا ليومٍ واحد فقط في الصحيفة اليومية. وفي مطلع التسعينات كان هذا الحد الأدنى من مجال التأثير فيما يتم نشره علنًا بالنسبة لجميع هؤلاء، الذين لم يكن متاحًا لهم الوصول بشكلٍ ثابت إلى وسائل الإعلام، بمثابة واقع غير قابل للتغيير. واليوم تبدو هذه الفترة كأنها عهد سحيق، صار حقبة زمنية غريبة.

بسرعة البرق – صار موقع "فيس بوك" "Facebook" منذ خريف عام 2006 شبكًة تفتح أبوابها أمام الجميع وأصبحت الهواتف الذكية متوافرة منذ عام 2007 ومتاجر التطبيقات الإلكترونية منذ عام 2008. وبذلك تكوَّنت ثقافة رقمية واسعة النطاق، تبحث مقالات صحفية وأكاديمية باستمرار أساليب ظهورها وتحتفي بها وتشيطنها. غير أنه نادرًا ما يتم التطرق لأصل تاريخها المعرفي. (وإن حدث ذلك فإنه يكون من منظور تاريخ الكمبيوتر) ولذا يحاول هذا الكتاب بحث تأصيل مثل ذلك التاريخ المعرفي وترسخ التقنيات الرقمية لوسائل الإعلام في تاريخ العلوم الإنسانية. فما يلفت الأنظار في أساليب تمثيل الذات ومعرفة الذات في أيامنا هذه – سواء في "الملفات الشخصية" في وسائل التواصل الاجتماعي وكذلك أيضًا في خصائص تحديد الموقع الموجودة في الهواتف الذكية، والتي يتم استخدامها بشكلٍ متنوع، وقياسات الجسم وفقًا لحركة "القياس الكمي للذات" – يتمثل في حقيقة أنها جميعًا ترجع إلى طرق تم ابتكارها في علم الجريمة وعلم النفس والطب النفسي منذ نهاية القرن التاسع عشر. فاليوم أصبحت تقنيات جمع البيانات

– التي كانت مقتصرة لوقتٍ طويل على السلطات الشرطية والعلمية من أجل الوصول إلى مجموعة من الأشخاص يثيرون الانتباه – تخص أي مستخدم للهواتف الذكية وشبكات التواصل الاجتماعي. ومع ذلك لم تعد الأوصاف الشخصية التي ترتبط بالسير الذاتية وأجهزة نظام التموضع العالمي عبر الأقمار الصناعية "GPS" وأجهزة القياس، التي يتم تثبيتها على الجسم بصفةٍ دائمةٍ بمثابة أدوات لاستقصاء الشبهات الجنائية، بل تُستخدم اليوم بمفهومٍ عابث أو تواصلي أو يتم استلهامها اقتصاديًا أو عاطفيًا.

تاريخ المفهوم "ملف شخصي" في القرن العشرين

في هذا الصدد تعد فئة "ملف شخصي" ذات أهمية بالغة بصفةٍ خاصة. ومن المعروف أن هذا العنصر يلعب الدور المحوري في التبادل بين الأفراد داخل نطاق شبكات التواصل الاجتماعي. حيث أن الملفات الشخصية لأعضاء موقع "لينكد إن" "LinkedIn" أو موقع "إنستجرام" "Instagram" أو موقع "فيس بوك" "Facebook" – أي المكان، الذي يؤلفون فيه وصفهم لذواتهم والذي تتجمَّع فيه البيانات الشخصية والنصوص والصور ومقاطع الفيديو – تعد بمثابة نقطة التقاء للتفاعل فيما بينهم. ولذلك فإن حتى أوائل الأبحاث، التي أجريت حول وسائل التواصل الاجتماعي، قد وضعت "الملف الشخصي" في بؤرة ما قامت به من تحليل. فلطالما انطلقت على سبيل المثال "دانا بويد" من هذا العنصر في مقالاتها ذات التأثير الكبير والتي أخذت تنشرها بدءًا من العام 2002 حول موقع "فريندستير" "Friendster" (وهو أول شبكة تواصل اجتماعي يستمر نجاحها لوقتٍ طويل). فقد وردت الجملة الأولى من مقالها المنشور عام 2006 كما يلي: «لقد أصبحت الملفات الشخصية الشكل السائد لعرض الهوية الشخصية على شبكة الانترنت». ووصفت "بويد" من يؤلفون أحد الملفات الشخصية – والتي يدور موضوعها حولهم في الوقت ذاته – بأنهم يتمتعون بقدرٍ كبير من الاستقلالية. فلديهم استقلالية تامة في عرض ذواتهم على الملأ وكلما زاد الابتكار والغلو في بناء شكل "الملف الشخصي"، زادت قوة رد فعل المستخدمين الآخرين لشبكة التواصل الاجتماعي. كما ذكرت "دانا بويد" و"جوديث دوناث" في عام 2004 عن موقع "فريندستير" "Friendster" أن «من يحمل على عاتقه عبء أن يخلق ملفًا شخصيًا مثيرًا للاهتمام، فسوف ينشئ علاقات تواصل أكثر». وكثيرًا ما

تصف "بويد" في مقالاتها الممارسة العملية لعملية تشكيل الذات بأنها "أداء الهوية" وتشدَّد على أن هذا التأثير المثمر الخلَّاق «قد حوَّل الملف الشخصي من طريقة إستاتيكية لتمثيل الذات إلى أداة للتواصل». أي أن هذا الشكل يمُنِّي بفضاءٍ حر يحدده الفرد بنفسه ويستطيع فيه المؤلفون والمؤلفات أن يقدمون دورًا صادقًا بشكلٍ أو آخر ويُجملونه بشكلٍ أو آخر ويرغبون في أداءه على الملأ وذلك على هيئة مشاهد تمثيلية.

ولكن لا ينبغي أن ننسى بالرغم من هذا كله أنه حتى عشرين أو خمسة وعشرين عامًا مضت كان السفاحون والمختلون عقليًا وحدهم موضوعًا تتناوله "الملفات الشخصية". لقد شهد هذا الشكل المعرفي وهذه الخطوط المتشابكة من الأوصاف الخاصة بالبشر في الربع قرن الأخير تحولًا سريعًا وكذلك جذريًا. ولهذا السبب فإنه انطلاقًا من خلفية استخدام المفهوم في يومنا هذا يصبح الانشغال بالدلالة التاريخية للمفهوم أمرًا ذا أهمية بالغة. في أي سياقات وفي أي توقيت ظهر "الملف الشخصي" الكتابي؟ من المؤلف وما موضوعه ولماذا تم إنشائه؟ في التعريف الذي ورد في قاموس "ويبستر" بدءًا من طبعة عام 1968 يُوصَف المفهوم "Profil" أنه «سيرة ذاتية قصيرة وواضحة، تحدد أهم ملامح شخصية أحد الأفراد»، أي أن تاريخ هذا الوصف يعد حديث نسبيًا (أدرجت الموسوعات الصادرة بالألمانية هذا التعريف في وقتٍ لاحق). وبدءًا من مطلع العصر الحديث كانت كلمة "Profil" تُستخدم في أول الأمر في سياقٍ معماري وجيولوجي ويقصد به المعالم المميزة للمباني وسلاسل الجبال. وبعد ذلك ترَّسخ أيضًا في القرن الثامن عشر معنى تلك الكلمة بوصفها المنظر الجانبي للوجه. ويبدو أن استخدام كلمة "Profil" بمعنى كونها "ملخصًا مرتبًا على شكل جدول أو على هيئة رسم بياني ويدور حول احد الأشخاص" كان غير معلوم حتى مطلع القرن العشرين.

إن لم يكن هذا الانطباع مضللًا، فإن هذه الكلمة وردت في العلوم الإنسانية لأول مرة بوصفها مفهومًا متخصصًا في مجال تقنية علم النفس وذلك في دراسات الطبيب النفسي الروسي "جريجوري روسوليمو"، الذي نشر في عام 1910 مقالًا تحت عنوان "الملف النفسي". صمَّم "روسوليمو" في هذه الدراسة – التي صدرت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أيضًا باللغة الألمانية وأيدها في العشرينيات زملاء لـ"روسوليمو" متخصصون في الطب النفسي مثل "كارل بارتش" و"فريتس جيزه" – اجراءات القيام باختبار للأطفال بدءًا من عمر سبع سنوات من أجل قياس المواهب المختلفة ومدى التركيز وأداء الذاكرة وقوة تداعي الأفكار وذلك وفقًا لمقياس متدرج من واحد إلى عشرة. يرى "روسوليمو" أنه في نهاية إجراءات الاختبار هذه يمكن «ربط كل نقاط الجدول مع

بعضها البعض والحصول من خلال ذلك على منحنى مستويات التطور لكل عملية على حدة، أي *ملف نفسي مفصل*». تُستخدَم هذه القيم القياسية في روسيا في المقام الأول من أجل تخصيص نمط المدرسة المناسب للأطفال ذوى السلوك غير المنضبط. ووفقًا لما يقوله "كارل بارتش" في موائمته لتلك الطريقة فإن «الملف النفسي يتيح تحليل الوظائف النفسية للأطفال وتوضيحها ويعرض السبل للمعالجات التربوية العلاجية للاضطرابات الموجودة».

أي أن الاهتمام المعرفي ب"الملف" يكمن منذ البداية في تقديم إيضاح عن هوية وسلوك الأفراد المنحرفين لمرجعية تقوم بفحصهم وتقييمهم. كتب "كارل بارتش" – الذي بلغ بتأويلات "روسوليمو" للاجراءات القياسية درجًة قصوى وأطلق على دائرة للشباب الخاضعين لفحصه اسم "المصابون بأمراض نفسية" – عن طالب يعاني من صعوبات تربوية بالغة وسيرته الذاتية حافلة بمشاكل طويلة: «من بإمكانه أن يفهمه دون معرفه ملفه النفسي؟» كما أقام العالم التربوي العلاجي المنتمي لمدينة لايبزج أيضًا علاقة يمكن حسابها بين "منحنى الملف" ورد الفعل المؤسسي عليه. ووفقًا لما أوصى به "بارتش" فإنه «يتأتي إرسال كل الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين سبعة وثمانية أعوام وعلاوًة على ذلك لم يبلغوا في ملفهم النفسي درجة مقدارها أربع درجات، إلى مدرسة دعم خاص». وطبقًا لما ذكره عالم تقنية علم النفس "فريتس جيزه" عام 1923 فإنه حيثما يتم إنشاء ملف نفسي، وحيثما يتم النظر «بشكلٍ عرضي للإنسان من منظور علم النفس» فإن الحالة الطبيعية وصحة الأشخاص الخاضعين للتجربة والتحليل تصبحان على المحك.

فقد "الملف النفسي" قرابة عام 1930 أثره في بادئ الأمر بمفهوم ما ورد في تقنية علم النفس. بيد أن المفهوم سرعان ما ظهر بعد ذلك في سياقٍ معرفي جديد، أكسبه بعد ذلك في أواخر القرن العشرين شعبيًة واسعة. فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ازدادت حالات التعاون بين الخبراء الجنائيين والمحللين النفسيين في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل دفع عملية الكشف عن ملابسات القضايا الجنائية – لا سيما مثل تلك القضايا، التي يُرجَح أن من يقف خلفها جاني معتاد على الإجرام – إلى الأمام. ومثلما يُخضِع العمل الشرطي المتعارف عليه الآثار المادية الموجودة في موقع ارتكاب الجريمة للتقييم – من أجل الاقتراب من هوية الجاني عن طريق بصمات أصابع اليد أو المقذوفات المتناثرة – فقد بدأ منظور علم النفس الجنائي يُركِّز على الآثار الانفعالية وغير المادية، التي يُخلِّفها الجاني وكذلك على سؤال، كيف ترتسم في مسرح الجريمة مشاعر الكراهية

والخوف والغضب والاحتياج إلى الحب أو الانفعالات الأخرى التي تختلج في نفس الجاني. لقد ساهمت بصمة الشخصية هذه والبحث وفقًا لعلم النفس الجنائي عن الآثار النفسية عند ارتكاب الجرائم في الكشف عن ملابسات الجرائم المتسلسلة والمثيرة للضجة في الخمسينات (على سبيل المثال في حالة جورج ميتيسكي "زارع القنابل المختل عقليًا" والذي يرجع أصله لمدينة نيويورك). إلا أن تلك الطريقة المنهجية لم توصف – على ما يبدو – لأول مرة بأنها "ملف ينشئه الطب النفسي" سوى في العام 1962 وذلك في مقال للمحلل النفسي "لويس جولد" كتبه عن مشعلي الحرائق ذائعي الصيت.

وبالنظر للاستخدام السابق للمفهوم في علم النفس التطبيقي فقد اتسم "الملف الذي ينشئه الطب النفسي" في علم البحث الجنائي باختلافٍ كبير؛ فأصبح من المتعين الاستعانة بهذا الشكل المعرفي لتحديد هوية أشخاص غير معروفين؛ حيث حلَّت عملية البحث عن المطلوبين جنائيًا محل الاختبار المعرفي وحلَّ وضع الفرضيات محل المقولات العلمية القابلة للقياس الكمي. اعتمدت تقنية التحقيق الجديدة في مرحلتها المبكرة على المؤسسات، التي تمتعت بالجاذبية والتي كانت تفضي إلى استخدام أساليب الشعوذة، والتابعة لعلماء نفسيين منفردين في مجال الجريمة مثل "جيمس بروسل". ولم يتطور إنشاء "ملفات للجناة" – حسبما تسمى الآن – بدقة منهجية إلا مع نهاية السبعينات وذلك في نطاق قسم تم تأسيسه حديثًا في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي ”FBI“ وحمل اسم "وحدة العلوم السلوكية". اختبر علماء النفس والخبراء الجنائيون في ذلك القسم طرق منهجية جديدة من أجل اتخاذ رد فعل على معدل الجريمة المرتفع في الولايات المتحدة الأمريكية. ووفقًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي ”FBI“ فإنه منذ الستينات لم يتنامى بشدة عدد جرائم القتل الغامضة فحسب، بل ارتفعت بشدة أيضًا نسبة الجرائم، التي لم يكن يعرف فيها الضحية الجاني، من عشرة إلى ثلاثين بالمئة، وذلك طبقًا لما أثبتته إحصائية عن القتلة الذين تم إثبات ارتكابهم للجرائم. وقد كتب "ريتشارد أولت" و"جيمس ريس" في مقالهما الأساسي الصادر في المجلة الشهرية "نشرة تطبيق القانون التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي" (“FBI Law Enforcement Bulletin„) أنه «إذا كان المجرمون يتصرفون دائمًا على نحوٍ أكثر مكرًا، فإن الأمر ذاته لابد وأن ينطبق على أدوات التحقيق، التي يستخدمها موظفو الشرطة. ويندرج ضمن تلك الأدوات التحليل النفسي للمجرم – أي التنميط النفسي للمجرمين».

أي أنه طبقًا لـ"ريتشارد أولت" و"جيمس ريس" فإن المهمة المعرفية للـ"ملف" تكمن في فهم أنماط سلوكية ودوافع محددة لمرتكبي جرائم القتل الجنسية أو جرائم إشعال الحرائق عمدًا، والتي لم يتم كشف غموضها، وذلك في الأماكن المشئومة، التي وقعت فيها تلك الجرائم. وفي موضع آخر وصف أحد رؤساء "وحدة العلوم السلوكية" هذه الاستراتيجية بأنها محاولة «للعثور على الجاني عبر تحديد سبب الجريمة». حيث يستنتج المحققون من وضع مكان ارتكاب الجريمة هل ارتكب المجرم الجريمة بطريقةٍ أقرب لأن تكون منظمة أو غير منظمة ومن هذا الاختلاف الرئيس يحاولون حصر هوية الجاني المجهول أكثر فأكثر. وذلك انطلاقًا من هل كان مرتكب الجريمة يعيش على مقربة مباشرة للضحية؟ وهل كانت شقته في حالةٍ متردية؟ وهل الجاني طلق اللسان أم منبوذ اجتماعيًا وهل كان فاتح البشرة أم داكن البشرة وهل كان بدينًا أم نحيفًا هزيلًا؟ (فوفقًا لقناعات علماء نفس الجريمة هناك أمراض نفسية محددة تظهر في عادات تقشفية عند تناول الطعام) لقد استهل موظفا مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI" مقالهما الرائد بإعلان خبر النجاح في التمكن من الكشف عن ملابسات سلسلة من سبع جرائم اغتصاب، تأتي فيها اكتشاف "طريقة ارتكاب الجريمة" ذاتها، وذلك في غضون أسبوع من إنشاء الملف الجنائي. تتعلَّق عناصر التخمين، التي يتضمنها هذا الملف بما يلي:

1) الأصل العرقي للجاني

2) جنسه

3) العمر بالتقريب

4) الحالة الاجتماعية

5) الوظيفة

6) السلوك المتبع عند الاتصال بالشرطة

7) درجة النضج الجنسي

8) السؤال، عما إذا كان من الممكن أن يرتكب الجاني جرائم أخرى

9) إمكانية، أن يكن / تكن قد اقترف(ت) بالفعل جرائم مشابهة في الماضي

10) وجود سوابق محتملة

© 2018 Litrix.de

وبالإضافة إلى ذلك فإن التقاط صور فوتوغرافية لموقع الجريمة ومحاضر التشريح والفحوصات المعملية والتقارير الشرطية تعد من وسائل المساعدة، التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل إنشاء ملف للجاني.

لقد أصبحت مجلة "نشرة تطبيق القانون التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي" („FBI Law Enforcement Bulletin“) في عام 1980 تصدر بصورةٍ كلية في ظل هذا الشكل الجديد لإجراء التحقيقات. وتبع صدور المقال الرئيس لـ"ريتشارد أولت" و"جيمس ريس" مقالات عديدة، تم فيها تطبيق التصور المعرفي المبدئي لملف الجاني بشكلٍ اختص بالجرائم الجنسية وجرائم إشعال الحرائق عمدًا. وعلاوًة على ذلك بدأ موظفو "وحدة العلوم السلوكية" في إجراء سلسلة من المقابلات النفسية – والتي خُصِّص لها وقت تجاوز سنوات – مع السفاحين المدانين. وبالرغم من هذا كله فقد كان السعي لوضع آثار فكرية فردية عند ارتكاب سلسلة من الجرائم يرتبط ارتباطًا ضروريًا بالمرض النفسي، الذي يعاني منه الجاني. كما كتب "لويس جولد" بالفعل عام 1962 قائلًا: «يسود بصفةٍ عامة الاعتقاد بأن الشخص، الذي يشعل الحرائق مضمرًا النية الكاملة لذلك، يرتكب جريمة شاذة. [...] تكمن جذور هذا السلوك المنافي للطبيعة بعمق في شخصية الجاني وترجع إلى اضطراباتٍ جنسية». كما أكد "أولت" و"ريس" في مقالهما أنه «لأمر ذا أهمية قصوى أن تقتصر هذه التقنية في التحقيق على الجرائم العظمى، التي تفتقر في بادئ الأمر لأي دافع معروف لارتكابها وتثبت الإشارات بشكلٍ كافٍ أننا بصدد جرائم ارتكبها شخص مريض نفسيًا». أي أنه لا يتم إنشاء "ملفات" إلا عندما يكن مغزى الجريمة غير واضح؛ فيصبح من شأن "الملفات" أن تُظهِر الأمور المنطقية والقابلة للقياس الموجودة في أماكن ارتكاب الجريمة، التي يسودها الفوضى، حيث يكن الغضب الذي أذهب بعقل الجاني قد بدَّل هذه الأمور المنطقية والقابلة للقياس في بادئ الأمر. «لا يتعين أن تنشأ الملفات الشخصية النفسية (حسبما يُطلق عليها بشكلٍ لا لبس فيه في سياق مرتكبي الجرائم المتسلسلة لإشعال الحرائق عمدًا) سوى في الحالات التي يثبت فيها أن الجاني المجهول لديه شكل من أشكال الاضطراب الذهني أو العاطفي أو السلوكي. أما إذا لم يتأتى اكتشاف وجود خلفية إصابة مرتكب الجريمة بمرض نفسي، فإنه لا يتم إنشاء ملف للجاني.»

إن الخلل العقلي للمجرمين يُمثِّل الشرط الوحيد لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI“ الذي يتيح إنشاء ملف للجاني. لقد ارتفع سريعًا عدد الجرائم، التي طُبقِّت عليها طريقة التحقيق الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية (ففي عام 1979 كان عددها

خمس وستون حالة فقط وفي عام 1980 تجاوز عددها مئتي حالة). أما في ألمانيا فقد صدر التكليف بإنشاء أول ملف لأحد الجناة للمرة الأولى عام 1984 وذلك بعد طلب تم تقديمه إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI". إلا أن هذا الإجراء لم يحظَ باهتمامٍ عريض من الرأي العام إلا مع مطلع التسعينات وذلك في سياق عرض الفيلم الأمريكي "صمت الحملان" والذي حقق نجاحًا كبيرًا. في هذا الفيلم تثبت إحدي عميلات مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI" – و التي تلقت تدريبًا نفسيا – إدانة أحد السفاحين. ونتيجًة لذلك الفيلم أصبح العمل الذي يؤديه "المُنمِّطون" ظاهرة من ظواهر الثقافة الشعبية. لقد نشر بعض من أفراد الرعيل الأول لـ"وحدة العلوم السلوكية" التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI" ومنهم على سبيل المثال "روبرت ريسلر" و"جون دوجلاس" مذكراتٍ كانت محط الأنظار. وفضلًا عن ذلك فإن هذه المهنة تحتل مكانًا محوريًا منذ أواخر التسعينات في الكثير من المسلسلات البوليسية المذاعة تليفزيونيًا مثل "عقول إجرامية" و"الألفية" و"مطلق الألعاب النارية" و"المُنمِّط".

تتضح من العرض السريع لتاريخ المفهوم "Profil" على الفور حقيقة أن هذا الشكل قد وصف طوال فترة تقل عن قرن الأفراد المتواجدين في موقف اختبار أو بحث جنائي. ولو تتبعنا النتيجة الجوهرية، التي توصل لها "ميشيل فوكو"، ومفادها بأن معرفة الناس عن الأفراد الهامشيين تطورت إلى حدٍ بعيد منذ أواخر القرن الثامن عشر – حيث دفع سعي الطب النفسي لفهم المرضى وكذلك التعامل الجنائي مع المجرمين الأسئلة عن كيفية الكشف عن هويتهم وإجراء قياس أجسامهم إلى الأمام – فإن هذا التأثير يزداد تركيزًا في الشكل المعرفي "للملف". حيث يدور موضوع الملف حول شخص يخضع للتقييم أو شخص يتعرَّض للتعقب ومن يؤلف الملف ممثلون لسلطة الدولة أو الشرطة أو السلطة العلمية. وفي "الملفات"، التي تم إعدادها في القرن العشرين، تدخل علاقات السلطة المؤسسية إلى حيز التنفيذ بدرجةٍ مميزة من الوضوح. ويمكن بوضوح سرد تاريخ نجاح الطب النفسي والبحث الجنائي بهذا المعني وذلك على مدار نشأة وتكوين تقنيات تسجيلهما وتدوينهما.

وقد ترسَّخ هذا الجانب أيضًا في السياقات الدلالية الأقدم للمفهوم. حيث كان معنى مفهوم "Profil" الوارد في تاريخ الفن بوصفه منظر جانبي للوجه دائمًا ما يُستخدم منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، عندما يتعين الربط بين تأثيرات معرفية تنظيمية وتصنيفية محددة وبين عرض الوجه. فقد حوَّل "يوهان كاسبر لافاتر" صورة خيال الظل أي خيال الظل في المنظر الجانبي للوجه من عمل فني، يتم القيام به في عناية، إلى

شفرةٍ كتابية، تُمكِّن من يقرأها من الولوج إلى مكنون نفس كل إنسان. لم يدع "لافاتر" في بحثه الموجز والصادر عام 1772 تحت عنوان "من علم الفراسة" مجالًا للشك في أن الصور الموضوعة على اللوحات المعدنية أو الرسومات الخاصة بالأشخاص الذين يتم تأملهم يجب أن تُظهِر المنظر الجانبي للوجه. وللبرهنة على هذه النظرية قارن "لافاتر" بين رسمٍ يتمتع بأهمية في سياق علم الفراسة ويظهر به جانب وجه الفيلسوف "مونتسكيو" وبين بورتريه للفيلسوف له مدلول أقل قوة واكتشف "لافاتر" أن في البورتريه « تعرض لنا نظرة الرسام وبالتالي نشاط العضلات [...] في أغلبها شيئًا متكلفًا ومتصلبًا ومتوترًا بدلًا من أن تعرض لنا الوضع الطبيعي». يرى "لافاتر" أن عرض المقطع الجانبي للوجه يتغلب على هذا العيب في تصوير الوجه من الأمام، لأن كل من يسمح بتصويره على هذا النحو «يهدف إلى حدٍ كبير في ألا تتحكم فيه عين الرسام، بل إلى أن ينظر بشكلٍ أكثر طبيعية وحرية». وبالتالي تتيح الصورة المأخوذة للمقطع الجانبي للوجه وجود موضوعية أكبر وبالتالي إمكانية أفضل للتأويل. وبعد ذلك بنحو مئة عام برهن العالم في مجال الجريمة والمنتمي لمدينة باريس "ألفونس بيرتيون" على أمرٍ مشابه تمامًا، عندما قدَّم نظامه الجديد لتحديد هوية الجناة المعتادين على الإجرام تحت اسم "الأنثروبومترية" وهو عبارة عن سلسلة من قياسات الجسم يتم إكمالها بصورة فوتوغرافية ملتقطة لجانب وجه المذنبين. حيث كتب "بيرتيون" قائلًا: «إن المنظر الجانبي للوجه يعد بما فيه من خطوطٍ دقيقة مناسبًا لعرض السمات الفردية المحددة لكل وجه على درجةٍ أكبر من الصورة الملتقطة للوجه من الأمام». ربما يعزي سبب هذا في المقام الأول إلى إمكانية تحديد الهوية بشكلٍ ممتاز عن طريق الأذن، التي يختلف شكلها عند كل إنسان ولا يمكن تغيير شكلها أثناء التقاط الصورة الفوتوغرافية عن طريق التلاعب بتعبيرات الوجه على أي نحوٍ يريده الشخص. توضح شروحات "لافاتر" و"بيرتيون" أنه من المفترض أن يكن "للصورة الملتقطة لجانب الوجه" بوصفها مقطعًا جانبيًا للوجه تأثيرات معرفية عن الأفراد الخاضعين للتحليل والتصنيف وتشبه بذلك الوثيقة المكتوبة على هيئة جدول وتحمل الاسم ذاته.

الانتصارات المتواصلة للملفات الشخصية التي ينشأها الأفراد لأنفسهم

تواكب مع تأسس الثقافة الرقمية في الربع قرن الأخير إعادة تعريف وتوسيع نطاق استخدام شكل "الملف الشخصي" بصورةٍ هائلة. فبينما كان الأمر يتعلق بدءًا من اختبار قياس مستويات الذكاء، الذي وضعه "روسوليمو" وحتى الطرق المنهجية للبحث الجنائي، التي يتبعها مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI"، بإدراك سلوك

منحرف، فإن مهمة الملفات الشخصية في يومنا هذا غالبًا ما تكمن في إبراز أن صاحب الملف الشخصي يتمتع بجاذبيةٍ خاصة وكفاءة ومشاركة اجتماعية. فحسبما أوضح النقاش حول سلوك مرتكبي جرائم إطلاق النار بشكلٍ عشوائي عام 2012 على وسائل التواصل، فإن "الملف الشخصي" يمثل في الوقت الحاضر أن صاحبه يتمتع بوضع طبيعي أكثر مما يمثل ذوي الحالات المرضية. كيف وصل الأمر إلى هذا التحول؟ في أي سياقاتٍ تحوَّل وصف الشخص على نحوٍ إلزامي إلى وصف شخصي يتم إنشائه عن طيب خاطر؟

تغيَّرت الشروط التقنية لتشكيل الرأي العام بشكلٍ أساسي في منتصف التسعينات، أي عندما تحوَّل الربط بين أجهزة الكمبيوتر وعملية التفاعل بينها – والذي طوال ربع قرن مقصورًا على دائرة محدودة من الأفراد التابعين للجيش الأمريكي وقراصنة الكمبيوتر – إلى شكل من أشكال التواصل يشمل العالم بأسره ويحمل اسم شبكة الانترنت. حيث أتاح النمو المتسارع جدًا للشبكة العنكبوتية العالمية وكذلك متصفحات الانترنت ذات الطابع التجاري مثل متصفح "نتسكيب" "Netscape" لكل مستخدم إمكانية الإعلان عن شخصه دون وجود وسائل الإنتاج باهظة التكاليف والخاصة بوسائل الإعلام أيضًا. أي أن "التواصل" على شبكة الانترنت لا يعني منذ البداية إسراع عملية التبادل بين فئة من المتلقين يعرفون بعضهم البعض بالفعل (التحول من إرسال خطاب أو فاكس إلى إرسال رسالة بريد إلكتروني) فحسب، بل وأيضًا الإمكانية الجديدة لأن يتراسل أشخاص معًا، لم يسبق لهم معرفة بعضهم البعض، وذلك على هيئة التواصل عبر المنتديات والمنصات الإلكترونية في شبكة الانترنت.

ظهرت في هذا المجال الجديد للعلانية الرقمية أيضًا الآثار الأولى للملفات الشخصية التي ينشأها الأفراد لأنفسهم. ففي مستهل عام 1995 شرعت صفحة match.com – والتي يستخدمها في الوقت الحاضر ما يقل قليلًا عن ثلاثين مليون عضوًا مسجلًا فيها – نشاطها وذلك بوصفها أول منصة على الإطلاق للتعارف على شبكة الانترنت. وردت في النسخة الأُقدم من الموقع الالكتروني الدعوة التالية: «فلتصبح عضوًا بإنشاء ملف شخصي خاص بك». كما ورد في أحد إعلانات الشركة عام 1996: «match.com تمتلئ بملفات آخاذة للأعضاء». لقد بحثت عالمة الاجتماع "إيفا إيلوز" طريقة التعارف عن طريق شبكة الانترنت تطبيقًا على match.com وعلى منصات أخرى مشابهة في السنوات الماضية وشملت تحليلاتها، التي حظيت بمعدلات قراءة مرتفعة، أيضًا "الملف الشخصي" بوصفه شكلًا لتقديم الذات. إن كل مستخدم ومستخدمة لهذه المنصات يجب

عليه عند قيامه بالتسجيل الإجابة على عشرات الأسئلة المتعلقة بمظهره الخارجي واهتماماته ونمط معيشته والقيم، التي يؤمن بها، من أجل إمداد الأعضاء الآخرين بقدرٍ كافٍ من المعلومات وكذلك إمداد علماء النفس التابعين لmatch.com بمادة بحثية قابلة للتنميط. فالأمل في إيجاد نتائج البحث "الرئيسة" لمجموعة كبيرة من الشركاء المحتملين يضاهي في أهميته وجود توافق بين ملفين شخصيين. أولت "إيفا إيلوز" في الدراسات، التي أجرتها، اهتمامًا في المقام الأول بالتناقض الذي يحدث في المنصات بين الشعور بالألفة وعلانية السوق وبين تعرية الأفراد والإطراء عليهم على نحوٍ يماثل ما يحدث عند ترويج السلع. ولذلك فإن أبحاثها الاستقصائية، التي ترجع إلى نهاية الألفية، تتمتع بأهمية في تأصيل مفهوم "ملف" ويرجع هذا فقط إلى أنها جعلت من الممكن إدراك، كيف تأسس هذا الشكل في التعارف على شبكة الانترنت بالفعل بوصفه شكلًا محوريًا لتمثيل الذات. وقبل ذلك بسنواتٍ قليلة لم يكن "الملف الشخصي" معروفًا سوى بوصفه أداة للسيطرة على المذنبين. غير أن "الملف الشخصي" أظهر في مواقع التعارف عبر الانترنت جانبه المثمر الكامل بوصفه مسرحًا لوصف الذات.

وفي يناير عام 1997 أي بعد أقل من عامين من دخول منصة match.com إلى السوق قدم رجل القانون "أندرو وينريتش" في مانهاتن فكرته لإنشاء موقع إلكتروني تحت عنوان six degrees.com. لم يكن هذا الموقع يهدف إلى التوفيق بين عشاق محتملين، بل إلى بناء شبكة من الأصدقاء والمعارف. وكان موقع يوتيوب يتضمن مقطع فيديو خاص بذلك العرض التقديمي. اتصف مقطع الفيديو هذا بأنه غير واضح الصورة وتخللته مشاكل في الصوت. وقد حقق مقطع الفيديو هذا حتى ربيع عام 2017 عددًا متواضعًا للمشاهدات بلغ إحدى وثلاثين مشاهدة. وذلك بصرف النظر عن أنه يمكن أن يكن هناك بعض الحق في وصف خطبة "أندرو وينريتش" – والتي استغرقت خمس عشرة دقيقة – بأنها لحظة مولد مواقع التواصل الاجتماعي بمفهومها المستخدم اليوم. كان موقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" – والذي امتد نشاطه من عام 1997 وحتى عام 2001 – عبارة عن شبكة على الانترنت، سجَّلت بين الحين والآخر وجود مئة موظف وثلاثة مليون ونصف مستخدم. لكن هذه الشبكة لم تثير اهتمامًا هائلًا بسبب الاتصال البطئ وغير المتحرك بشبكة الانترنت في نهاية التسعينات واقتصار البيانات المتوافرة على النصوص، وذلك على نحوٍ مختلف لمنصتي "فريندستير" "Friendster" و"ماي سبيس" "MySpace"، اللتان تم تأسيسهما عامي 2002 و2003، حيث أتيح لمستخدميهما بشكلٍ متزايد الاتصال بالانترنت ذي النطاق العريض

وكذلك الكاميرات الرقمية والتي بدأ بها تاريخ نجاح وسائل التواصل الاجتماعي والذي شمل العالم بأسره.

أثبت أندرو وينريتش في بداية خطبته أن «إمكانيات الترابط والتواصل ظلت في العشر والخمسين والمئة سنة الأخيرة كما هي. وهذا ما نسعى اليوم إلى تغييره. نريد أن نكتب التاريخ وأن نعرض لكم، ماذا يعني منذ الآن فصاعدًا إنشاء شبكة للتواصل». تلا هذا الإعلان الواثق عرض لموقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" والذي ضم في حقيقة الأمر جميع العناصر الأساسية لوسائل التواصل الاجتماعية، التي ظهرت لاحقًا والتي غيرت مجرى التاريخ. كان في بؤرة هذه العناصر "الملف الشخصي" للمستخدمين. ولو أثار اليوم التفكير في هذا الشكل تداعى أفكار عن مليارات الأوصاف الشخصية الموجودة على حسابات "فيس بوك" "Facebook" و"لينكد إن" "LinkedIn" و"انستجرام" "Instagram"، فإن فكرة موقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" تعد بمثابة نموذج أوليًا في هذا الصدد. لقد تم تهيئة هذا النموذج بدقة في مذكرة براءة الاختراع التي حملت عنوان "طريقة وتجهيزات إنشاء قاعدة البيانات والنظام الخاصين بالشبكة". وقد قدمها أندرو وينريتش وموظفيه بالتزامن مع إطلاق موقع "سيكس ديجريز""Sixdegrees" . يتأتى معرفة الأهمية، التي حظيت بها فئة "ملف شخصي" هنا من أن برنامج الكمبيوتر الحاصل على براءة الاختراع جعل قيام أي مستخدم جديد بالتسجيل – حسبما يُقال – متوقفًا على ملأ «بعض العناصر المنصوص عليها» في الملف الشخصي. تشمل هذه العناصر نقاط عديدة من بينها «محل السكن والوظيفة والجنس». ولا يمكن تشغيل وظائف الشبكة وإضافة «أصدقاء» أو البحث عن أشخاص ذوي صفات محددة دون إكمال ملأ هذه العناصر. وفي موضع آخر من مذكرة براءة الاختراع أي في فقرة «تعديل الملف الشخصي» يتم التأكيد مرَّة أخرى على أن أي عضوٍ جديد في الشبكة «عليه أن يودع معلومات مختلفة في الملف الشخصي ومنها على سبيل المثال عنوان (عناوين) البريد الإلكتروني واسم العائلة والاسم الأول والاسم المستعار والوظيفة ومحل السكن والهوايات والقدرات المميزة والكفاءات التخصصية وخلافه». ترتبط وفرة المعلومات عن كل مستخدم بثمة صلة بنموذج العمل المرغوب فيه والخاص بموقع sixdegrees.com. يتمثل هذا النموذج في «تقديم خدمة بريد إلكتروني مجانية للأعضاء في مقابل إنشائهم لملف شخصي يصف ميولهم الشخصية». وتعين أن يرى كل مستخدم لموقع sixdegrees.com على صفحته إعلانات مشخصنة ومصممة بشكل فردي.

إن ما كان يُطلق عليه في هذا البرنامج – الذي تأسس عام 1997 ويعد أساسًا تعود إليه وسائل التواصل الاجتماعي – اسم "الملف الشخصي" اعتُبِر بمثابة عملة نقدية، تتيح لمن يدير الملف الشخصي في المستقبل أن يمارس تجارة تدر ربحًا. ولذا لم يكن من الممكن تقديم الخدمة مجانيًا سوى لأن كل مستخدم يدفع مقابل تلك الخدمة عن طريق نبذة يؤلفها بنفسه وتحمل طابع السيرة الذاتية وتتيح للمعلنين المحتملين أن يعرفوا ما لم يكن معلومًا لهم حتى ذلك الوقت عن الظروف المعيشية لمن يرسلون إليهم إعلاناتهم. ولذلك تعد "الملفات الشخصية" في تاريخ وسائل التواصل الاجتماعي منذ البداية ذات شقين: فهي تعد بالنسبة لأعضاء وسائل التواصل الاجتماعي شكلًا لعرض الذات قابلًا للتسجيل وبالنسبة للشركة صاحبة موقع التواصل الاجتماعي مستودعًا يضم وفرًة من البيانات عن أشخاص حقيقين ومستهلكين حقيقين ويدر ربحًا. ظهر مدى ارتفاع التوقعات الاقتصادية المعلقة على ذلك المستودع بوضوح، عندما عرض المالكون الجدد للشركة مذكرة براءة الاختراع - التي باعها أندرو وينريتش مع حصته في الشركة عام 1999 - للبيع وذلك بعد انتهاء فترة نشاط موقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" . وفي المزاد العلني المقام في سبتمبر عام 2003 تقدم بعض الرواد في مجال وسائل التواصل الاجتماعي وبعض الشركات القابضة لشراء البرنامج. وعندما اشتراه "ريد هوفمان" المشارك في ملكية إحدي الشبكات – التي كانت قد تأسست قبل ذلك بأشهرٍ قليلة وحملت اسم "لينكد إن" "LinkedIn"، في مقابل سبعمائة ألف دولار – وصف مذكرة براءة الاختراع بأنها «صيغة غيرت مجرى الأمور في مجال شبكات التواصل الاجتماعي» وأنها زودت شركته الخاصة بالخطوط العريضة لتقويتها من الناحية الاقتصادية والمعلوماتية.

أطلق أندرو وينريتش اسم "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" على المنصة، التي رأي أنها ستحدث ثورة في إمكانيات الترابط والتواصل الاجتماعي على شبكة الانترنت والتي أقر متنبئًا لها أنها سيكون لها المقدرة على «استيعاب مئات الآلاف، بل ملايين الأفراد». وفي عام 1997 أصبح لهذا المفهوم وقعٌ مألوف، لأنه ربط تجربة الفكرة مع الممارسة العملية حديثة العهد لشبكات التواصل الاجتماعي، وهي التجربة، التي حظيت في السنوات السابقة على ذلك بشعبية كبيرة للغاية في وسائل الإعلام القديمة والمتمثلة في المسرح والفيلم. ففي عام 1990 عُرِضت للمرة الأولى مسرحية تحمل اسم "ست درجات من الانفصال" وذلك على أحد مسارح القبو في برودواي. حققت هذه المسرحية في السنوات التالية نجاحًا ثبت أنه أحد النجاحات المسرحية الكبري في الولايات المتحدة الأمريكية وأيضًا في عام 1993 أصبحت النسخة السينمائية والتي حملت الاسم ذاته

محط الأنظار بما في ذلك اهتمام مانحي جائزة الأوسكار بها. أي أن "أندرو وينريتش" أشار بذلك المفهوم إلى الفرضية، التي كانت موجودة في منتصف التسعينات، ومفادها أن أي شخصين على سطح الأرض لا يفصل بين معرفتهما لبعضهما البعض سوى ست مسافات على الأكثر تربط بينهما. أجريت هذه التجربة في المسرحية وكذلك في سيناريو الفيلم، اللذان ألفهما "جون جوبير"، حتى نهايتها ودونما توقف تطبيقًا على أربعة أزواج من نيويورك. لقد أصبح هؤلاء الأزواج ضحايا لشخص محتال. كان المحتال شابًا، انتحل صفة ابن الممثل "سيدني بواتييه" وادعى أنه زميل لأبنائهم في جامعة هارفارد. ومنذ ذلك الحين يدور العمل "ست درجات من الانفصال" حول محاولة الأربعة أزواج للتحري حول هوية هذا الشخص المجهول وعلاقته الغامضة بأبنائهم، الذين لم يسبق لهم أن سمعوا عنه قط. تبدو المسرحية من منظور حياتنا اليوم في المقام الأول بوصفها دراسة لإنتاج المعرفة في ظل ظروف ما قبل العصر الرقمي، فقد اضطرت مجموعة أفراد الأسرتين المخدوعتين إلى أن تلجأ طويلًا وبشكلٍ متعب إلى وسائل الإعلام الاعتيادية لكي تستكشف، ما كانت محركات البحث ووسائل التواصل الاجتماعي في الوقت الحاضر ستقدمه بعد نقرات قليلة عليها (هل لدى سيدني بواتييه ابن؟ أي دوائر من الأصدقاء لدى زملاء الأبناء؟). حيث استعانت الأسرتان بالسيرة الذاتية لـ"سيدني بواتييه" – والتي حصلا عليها من مكتبة لبيع الكتب المستعملة – وبالكتب السنوية لطلاب هارفارد وختامًا بجريدة *نيويورك تايمز*، التي وضع فيها صحفي صديق لهما مقالًا عن سلوك الشخص المحتال.